

موقف مالك بن نبي من مكانة علم الكلام والتّصوف في مشروع الإصلاح

Malk Ben Nabi's position on the status of Theology and Sufism in reform project

مريم علّاش*

جامعة الجزائر، كلية العلوم الإسلامية - خروبة (الجزائر) m.allache@univ-alger.dz

تاريخ الاستلام: 2022/01/30 تاريخ القبول: 2022/10/24 تاريخ النشر: 2022/12/31

ملخص:

تعددت إسهامات مالك بن نبي في معالجة قضايا الفكر الإسلامي المندرجة عنده ضمن منظومته الفكرية العامة التي حدّدها في مشكلة الحضارة بمختلف أبعادها، محاولا تأصيل القضايا والمسائل وتحديد مدخلاتها ومخرجاتها وفق سياقها المعرفي العام، وهو بوصفه مفكرا مسلما يعيش واقع أمته الإسلامية في سيرها نحو الإصلاح يعالج موضوع إعادة بعث فاعلية الفكرة الدينية في الضمير المسلم كي تحثّ جهوده نحو النهضة، فيسلك طريق الانتقائية التي تعكس تصوّره واختياراته حيث يحيد بعلم الكلام والتّصوف عن قيادة مهمة بعث فاعلية العقيدة، ويرشّح بدلا منهما علما جديدا يسمّيه (تجديد الصّلة بالله) كمكوّن من مكوّنات المشروع النهضويّ الذي يبني أركانه لعملية الاستئناف الحضاريّ.

الكلمات المفتاحية: مالك بن نبي؛ تجديد الصّلة بالله؛ علم الكلام؛ التّصوف؛ الإصلاح.

Abstract:

Malk Ben Nabi has several contributions in dealing with the Islamic thinking issues which are listed under his general systematic thinking that he called problem of civilization in its different dimensions. He tried to root issues and problems by identifying their inputs and outputs inside their general cognitive context. Actually, Malk as a Muslim thinker who lives the reality of his Islamic nation in its path to the reform he dealt with reactivating the religious ideas in Muslim's conscious in order to push him to the renaissance.

* المؤلف المرسل طالبة دكتوراه تخصص العقيدة وأستاذة تعليم ثانوي مادة العلوم الإسلامية.

Thus, He chooses the path of transition which represents his choices and conceptions, since he stops using Sufism and Theology to revive his creed. Then, He suggests instead a new science which he calls «Renewing Connection with God» as a component of the renaissance project that he builds his pillars to continue the civilization project.

Keywords: Renewing Connection with God; Theology; Sufism; Malk Ben Nabi; reform.

مقدمة:

حلّ المفكر مالك بن نبي (ت1973م) مشكلة الحضارة، فصاغ معادلة الإقلاع الحضاري التي ضمّنها ثلاثة عناصر أساسية هي: الإنسان والتّراب والوقت. لكنّ الحضارة لا تنتج تلقائيا بتوافر هذه العناصر الثلاثة، فلا بدّ لها من عامل يؤثّر في مزج بعضها ببعض، والذي أطلق عليه مالك بن نبي اسم (مركبّ الحضارة) وهو (الفكرة الدينيّة) التي رافقت تركيب الحضارة دائما خلال التّاريخ.

فالحضارة برأي مالك بن نبي لا تنبعث إلّا بالعقيدة الدينيّة، والتي يتّجه تأثيرها إلى الإنسان كي ينهض هو ويؤثّر في العوامل الماديّة الأخرى. ولكي تصل الفكرة الدينيّة إلى ضمير الإنسان فإنّنا بحاجة لصياغتها في قالب أو منهج يخاطب هذا الإنسان ويخطّ لها الطّريق مباشرة إلى ضميره ويمنحه دفعة القلب والشّحنة العاطفيّة اللازمة لنهضته، فلا بدّ لنا من علم خادّم لهذه الغاية المنشودة. ولكنّ مالك بن نبي يرى بأنّ هذا العلم الذي يحقّق الغاية المرجوّة منه -بناء على المنهج والمضمون والغرض الذي رسمه له- ليس ضمن العلوم الدينيّة المتاحة والتي تشغل بالعقيدة، فبرأيه ليس هو علم الكلام ولا هو التّصوف، وإنّما هو علم جديد اصطلاح على تسميته بـ"علم تجديد الصّلة بالله".

مشكلة الدّراسة: ما هي ملامح هذا العلم الذي يقترحه مالك بن نبي بديلا لعلم الكلام والتّصوف في مشروع النهضة الإسلاميّة المنشودة؟

ما هي المبرّرات التي قدّمها مالك بن نبي لتحديد علم الكلام والتّصوف كرافدين من روافد بناء الحضارة والإصلاح؟

أهداف الدّراسة:

1. تسليط الضّوء على جانب من جوانب فكر فيلسوف الحضارة مالك بن نبي في إطار مشروعه الإصلاحي للبناء الحضاري.
2. عرض وتحليل نظرة مالك بن نبي إلى كلّ من علم الكلام والتّصوف كرافدين من روافد بعض مشاريع الإصلاح.
3. الجمع بين النّظرة العقليّة والنّظرة الرّوحية إلى إعادة دفع وبعث الفرد المسلم لبناء الحضارة الإسلاميّة المنشودة.
4. التّأكيد على ضرورة الرّجوع إلى الله بكلّ مكوّنات الإنسان من روح وعقل وتجديد الصّلة به كمبدأ أساسي لانطلاقة حضاريّة جديدة.

منهج الدّراسة:

المنهج المتّبع في هذه الدّراسة هو المنهج الوصفيّ التحليليّ، حيث قمت بجمع المادة العلميّة المتعلّقة بالموضوع بعد استقراء كتابات مالك بن نبي، ورّبت الأفكار التي كانت منثورة وفق وحدة موضوعيّة معيّنة لوصف أفكاره بتسلسل منطقي وموضوعي ثمّ تحليلها للخلوص إلى النتائج.

خطة الدّراسة:

تشتمل على مقدّمة ومبحثين وخاتمة:

المبحث الأوّل: مشروع التّهضة الإسلامي في فكر مالك بن نبي
المطلب الأوّل: سؤال الإصلاح وتغيير النّفس.

المطلب الثّاني: نقائص علم الكلام في مشروع التّهضة.

المطلب الثّالث: نقائص التّصوّف في مشروع التّهضة.

المبحث الثّاني: ملامح علم تجديد الصّلة بالله عند مالك بن نبي.

المطلب الأوّل: محدّدات علم تجديد الصّلة بالله.

المطلب الثّاني: النموذج التّطبيقي لعلم تجديد الصّلة بالله في مشاريع حركة الإصلاح.

المبحث الأول: مشروع النهضة الإسلامي في فكر مالك بن نبي:

عاصر مالك بن نبي بعض حركات الإصلاح التي ظهرت في العالم الإسلامي ودرس بعضها الآخر وحلّل نظرتها إلى مشكلة التخلف في العالم الإسلامي والمسالك التي سلكتها لتغيير واقع الأمة الإسلامية والسير بها نحو التقدم، وقدّم في كتاباته رؤيته لعملية الإصلاح وهو ما سنحاول بلورته في العناصر الآتية.

المطلب الأول: سؤال الإصلاح وتغيير النفس:

يؤرّخ مالك بن نبي لبداية مشكلة الحضارة في العالم الإسلامي بأول انفصال في تاريخه وهو معركة صفّين عام 38هـ، حيث «فقد العالم الإسلامي توازنه الأولي على الرّغم من بقاء الفرد المسلم متمسّكا في قرارة نفسه بعقيدته التي نبض بها قلبه المؤمن»¹، لكنّ هذا الانفصال كان يحوي في داخله جميع أنواع التمزق والمناقضات التي عانى منها العالم الإسلامي فيما بعد، حيث خلق هوة بين الدولة والضمير الشعبي فقد «أحلّ السلطة العصبية محلّ الحكومة الديمقراطية الخليفة»²، فكان بمثابة إحدى الأزمات التي تغيّر نظام بلد ما خلال التاريخ فتغيّر بذلك الحياة العامة.

ولم يقو العالم الإسلامي على الثّبات طويلا بعد أزمته الأولى، فلم يلبث أن انهار بناءه الاجتماعيّ إذ فقد دفعة الرّوح الأولى التي منحته الحركة، ولم يتمكّن من الاستمرار بمقوّمات الفنّ والعلم والعقل لوحدها، لأنّ الرّوح هو الذي يتيح للإنسانيّة أن تنهض وتتقدّم³. ودخل العالم الإسلامي لاحقا إلى عصر الانحطاط الذي يؤرّخ له في التاريخ الإسلاميّ بسقوط دولة الموحّدين، حيث أصيبت الأوضاع الاجتماعية بالجمود فكانت السّمة الغالبة على الفرد هي ميله إلى التّمسك بالعوائد السّائدة في المجتمع الإسلامي لأنّه عاجز عن التّقدم وعن ابتكار المعاني والأشياء الجديدة وتمثّلها، فميله إلى المحافظة هنا كان في حقيقته ناتجا عن افتقاره ونقصه، هذا الفرد الذي أطلق عليه مالك بن نبي اسم (إنسان ما بعد الموحّدين)، وهو إنسان فقد همّته المحضرة فأعجزه فقدها عن التّمثيل والإبداع. فهذا الإنسان الذي خلف إنسان الحضارة الإسلاميّة كان يحمل في كيانه نفسه المريضة التي

(1) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 29.

(2) مالك بن نبي، المصدر نفسه، ص 36.

(3) المصدر السابق، ص 30، 31.

موقف مالك بن نبي من مكانة علم الكلام والتّصوف في مشروع الإصلاح
تخلّقت في جو يشيع فيه الإفلاس الخلقي والاجتماعي والفلسفي والسياسي، والتي ورثتها عنه
الأجيال اللاحقة⁴.

فكان لا بدّ من ظهور حركات إصلاحية تخطّ طريقها إلى الضّمير المسلم لتعالج نفسه
المريضة وتعيد الفعالية إليها وتعلن الحرب على النّظم البالية والأفكار المميتة في العالم
الإسلامي فتثير ثورة اجتماعية لتخلق قيما اجتماعية جديدة تكون صالحة لتغيير الإنسان.
فينطلق مالك بن نبي من النّظر إلى المأساة الإسلامية بوصفها مشكلة اجتماعية، ومن
منطلق إيمانه بأنّ خطوة التّغيير الأولى لإصلاح المجتمع تبدأ من الفرد، حيث أسس هذه
الفكرة على قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» [الرّعد: 11]، إذ أنّ
نفس الفرد هي العنصر الجوهرية في كلّ مشكلة اجتماعية، فيرى مالك بن نبي أنّ حلّ
المشكلة الإسلامية يكمن أساسا في الجواب على سؤال: كيف نغيّر هذه النّفس؟⁵.

يعرض علينا مالك بن نبي في الإجابة عن هذا السّؤال جواب الشّيخ محمد عبده
(ت1905م) وبمثله أجاب فيما بعد محمد إقبال (ت1938م) بأنّه: من الضّروريّ إصلاح "علم
الكلام" بوضع فلسفة جديدة حتّى يمكن تغيير النّفس⁶. هذا الاختيار الذي يعيبه مالك بن
نبي ويعدّد له مجموعة من السّلبات.

حيث يرى مالك بن نبي أنّ علم الكلام لا يستجيب لضرورات مرحلة الانحطاط التي
يعيشها المجتمع المسلم، فمشكلة المسلم في هذه المرحلة هي أنّ عقيدته تجرّدت من فاعليتها،
ففقّدت إشعاعها الاجتماعي وصار إيمان الفرد متحلّلا من صلاته بوسطه الاجتماعي،
ومشكلة مشروع الإصلاح الفعّال هنا ليست أن يعلم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنّما أن يردّ
إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية وتأثيرها الاجتماعي⁷.

فيرى مالك بن نبي أنّ المشكلة ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله بقدر ما هي
في أن نشعره بوجوده، وأن نملاً به نفسه باعتباره مصدرا للطاقة، فالتّغيير المراد هنا هو
إقدار النّفس على أن تتجاوز وضعها المألوف.

(4) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص36، 38.

(5) المصدر نفسه، ص53.

(6) المصدر نفسه، ص35.

(7) المصدر نفسه، ص54.

وعبر مالك بن نبي عن إعادة بعث فاعليّة العقيدة ضمن ما كتبه عن فاعليّة الأفكار بقوله: «أثارت العواصف وشيّدت شيئا أو هدمته أو أنّها اكتفت بقلب صفحة من صفحات التاريخ الإنساني»⁸، فهو يشير إلى الأثر الذي تحدثه الفكرة في الإنسان لتدفعه إلى صناعة التاريخ، فالفعاليّة في فكر مالك بن نبي هي حركة الإنسان في صناعة التاريخ حيث «إذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ وإذا سكن سكن المجتمع والتاريخ»⁹ وهي تكون أقوى في الوسط الذي ينتج أقوى الدوافع وأقوم التوجيهات وأنشط الحركات¹⁰

ومن هذا المنطلق يشدد مالك على ضرورة عقد الصلّة بين الثّقافة والفعاليّة باعتبارها صفة ملازمة للإنسان المتحضّر¹¹، فأول خطوة بنظره في طريق بعث الفعاليّة في الإنسان هي خلق التوتّر الضّروري في الضّمير ضمن منهج تربوي سلوكي، وهو البرنامج الثّقافي لتكوين الإنسان وتوجيهه ضمن النّواحي الآتية¹²: التّوجيه الأخلاقي، التّوجيه الجمالي، المنطق العملي، التّوجيه الفّي أو الصّناعة.

ويتمثّل أهمّ عنصر ضمن رباعيّة التّوجيه سالفه الذّكر في التّوجيه الأخلاقي، حيث يكون المبدأ الأخلاقي مؤثرا وموجّها لحركة التاريخ، وذلك بجعل وجوده وجودا اجتماعيّاً يُنشئ الصّلات الاجتماعيّة ويبني النّسيج الاجتماعي. حيث تلعب المبادئ والأفكار دورا وظيفيّاً يتيح للمجتمع أو يوفّر لكلّ عضو فيه الضّمانات الاجتماعيّة اللاّزمة لتطوّره، فالفرد لا يستطيع تحقيق ذاته إلّا بفضل إرادة وقدرة نابعتين من المجتمع الذي هو جزء منه، وأمّا إذا ركن إلى قدرته وإرادته وحدها فسيكون منعزلا مقطوعا عن جماعته¹³. وباعتبار العقيدة هي الخلفيّة المرجعيّة التي يصدر منها المسلمون في التّفكير والتّطبيق العمليّ السلوكي، فلا بدّ أن يكون لها دور توجيهيّ شامل لكي يكون الاعتقاد مثمرا ومحركا إلى الخير، فتحتاج إلى وسيلة تطبعها في نفوس معتنقيها فتغيّر تصوّراتهم وسلوكهم وتكون هي الدافع لحركتهم إلى صناعة التاريخ.

(8) مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 103.

(9) مالك بن نبي، تأملات، ص 129.

(10) المصدر نفسه، ص 38.

(11) مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص 71.

(12) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 105، 85.

(13) مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 42.

موقف مالك بن نبي من مكانة علم الكلام والتّصوف في مشروع الإصلاح

وهذا التّغيير المراد_أي توجيه الإنسان الَّذي تحرّكه دفعة دينيّة يكتسب منها معنى الجماعة_ يذهب مالك بن نبي إلى أنّه ليس من شأن علم الكلام بل هو من شأن منهاج التّصوف، لكنّه يستدرك على ذلك بأنّه من شأن علم لم يوضع له اسم بعد ويقترح تسميته بعلم "تجديد الصّلة بالله"¹⁴.

ولإقامة الدّليل على صحّة ما ذهب إليه يعرض مالك بن نبي مجموعة من الانتقادات الّتي يوجّهها إلى علم الكلام والتّصوف على اعتبارها نقائص تقدح في أهليّة كل واحد منهما لقيادة عمليّة الإصلاح في مشروع النّهضة الإسلامي، هذه النّقائص الّتي سنحاول تجميعها وعرضها فيما يأتي.

المطلب الثّاني: نقائص علم الكلام في مشروع النّهضة:

يرى مالك بن نبي أنّ النّشاط الإصلاحي الَّذي قام به محمد عبده أحدث دويّاً وعمقاً شهد بهما العالم الإسلاميّ بعثاً أدبياً جديداً، فلأوّل مرّة منذ عهد ابن خلدون تمخّض عقل مسلم عن عمل فكري تمثّل في كتاب (رسالة التّوحيد) الّتي ألّفها محمد عبده، فيعتبر مالك بن نبي هذه الرّسالة أوّل جهد بذله الفكر الإسلاميّ للتّخلص من نومه المزمن فنتج عنه أن دار نقاش مرّق الصّمت الَّذي خيم على الجامعات الإسلاميّة القديمة، حيث بلغ ذلك مؤسّسة الأزهر الّتي بدأت تتناغم مع ما دار من نقاش أثاره جمال الدّين الأفغاني ومحمد عبده¹⁵.

لكنّ هذه النّهضة الّتي أثارها محمد عبده لم تخلُ من النّقائص، وأهمّ ما نسلط الضّوء عليه هنا هو دور علم الكلام في حركة الإصلاح الّتي قادها محمد عبده، فيرى مالك بن نبي أنّ محمد عبده لم يوفّق إلى تحديد المشكلة تماماً كما هي في الضّمير المسلم¹⁶، وبالتالي اختار علم الكلام كوسيلة لحلّ هذه المشكلة ممّا أثر سلباً على حركة الإصلاح الّتي قادها، ويعدّد له مجموعة من السّلبات الّتي تحيد بعلم الكلام عن أن يكون وسيلة حركة النّهضة الفعّالة لإعادة المسلم إلى صناعة التّاريخ، نذكر هذه النّقائص فيما يلي.

(14) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص54.

(15) المصدر نفسه، ص56.

(16) المصدر نفسه، ص56.

يرى مالك بن نبي أنّ كلمة "علم الكلام" جنت على حركة الإصلاح حيث حادت بها جزئياً عن الطريق، فعلم الكلام يشوّه المشكلة الإسلامية ويفسد طبيعتها حين يحطّ من قيمة مبدأ كمبدأ السلفيّة فيغيّر هذا المبدأ في عقول المصلحين أنفسهم¹⁷، والسلفيّة تعني عند مالك بن نبي العودة إلى الفكرة الأصليّة في الإسلام فكرة (السلف)، وهي الإلهام القرآني وتعاليم الرّسول عليه الصّلاة والسّلام والتي تتّصف بكونها دافعة حيث خلقت التّوتر الدّاخلي في ضمير المسلم¹⁸. ويقصد مالك بن نبي بذلك استمداد المبدأ الإسلامي من مصدريه الأصليين القرآن الكريم والسّنة النبوية الشّريفة مجردين عن تعليقات المتكلمين أو تفرّعات الفقهاء.

كما يذكر أنّ علم الكلام يقع في المناقضة اللاشعوريّة حيث يضع في مكان (المشكلة النفسيّة) في النّهضة (مشكلة كلاميّة)، فعلم الكلام لا يتّصل في الواقع بمشكلة النّفس إلا في ميدان العقيدة أو المبدأ، في حين أنّ المسلم وحتىّ مسلم ما بعد الموحّدين لم يتخلّ مطلقاً عن عقيدته، فقد ظلّ مؤمناً متديّناً¹⁹. بيد أنّ الإسلام في تكوينه للعقيدة يخاطب القلب والعقل، ويستثير العاطفة والفكر، ويوقظ الانفعالات النّفسيّة مع إيقاظه للقوى الدّهنيّة²⁰، وعلم الكلام يفرق في الاهتمام بالجانب العقليّ ولا يلتفت كثيراً إلى الأبعاد النّفسيّة أو الجانب التّربويّ الوظيفيّ للمعارف العقديّة.

ويمجّد علم الكلام الجدل وتبادل الآراء²¹، فقد ظلّ الجدل سائداً في المناقشات الأدبيّة، والمتجادلون حسب رأي مالك لا يبحثون عن حقائق وإنّما عن براهين، ولم يكن المجادل ليستمع إلى محدّثه بل كان يغرقه في طوفان من الكلام، وهو يعتبر الجدل من أضرّ الأمور على كيان الأُمَّة إذ يقوم في عمومها على هيام أحقق بالكلمات²² على حدّ وصفه. فالمهمّة التي كانت أساس وجود علم الكلام كما تظهرها أشهر تعاريفه²³ هي إثبات العقائد بالأدلّة والبراهين والدّفاع عنها ضدّ الشّبه الواردة عليها، وقد قام بوظيفته هذه بشكل جيّد

(17) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 53.

(18) مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 45.

(19) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 53، 54.

(20) محمد الغزالي، عقيدة المسلم، ص 3.

(21) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 55.

(22) المصدر نفسه، ص 58.

(23) الفارابي، إحصاء العلوم، ص 86؛ الإيجي، المواقف في علم الكلام، ص 7؛ أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضّلال، ص 71.

موقف مالك بن نبي من مكانة علم الكلام والتّصوف في مشروع الإصلاح
في أكثر الأحيان ابتداءً من نشوئه إلى فترة تمتدّ إلى القرن السّابع الهجري، ولكنّه فيما بعد
دخل إلى طور الجمود وحلّت عليه الصّبغة الدّراسيّة التي قوامها تاريخيّة الأفكار محلّ
الصّبغة الدّفاعيّة التي قوامها الرّد والإثبات.

وعند حديث علم الكلام عن ذات الله يصوّره لنا أنّه الله العقلي²⁴، فعلم الكلام يتّسم
بالنزعة التجريدية حيث يوغل في المباحث العقديّة من وجهة نظريّة افتراضيّة تعتمد
المحااجة العقلية، من غير صلة تذكر بالآثار التي تحدثها العقيدة في الحياة العمليّة²⁵، هذا
ما يظهر جليّاً في مبحث التّوحيد الذي نزع إلى الإيغال في استدلالات وبراهين على وحدانيّة
الذّات الإلهيّة دون أن يلتفت إلى وحدانيّة الأفعال والعبودية والتي يمكن أن يظهر أثر
الإيمان بها جليّاً في تفكير وعمل الإنسان المسلم.

يضاف إلى ذلك أنّ الحركة الإصلاحية في توظيفها لعلم الكلام كانت تستخدم الآيّة
القرآنيّة بوصفها وسيلة منطقية تساق لغرض تعليمي، فالقرآن في منهجها يلعب دور المعلّم
الذي يقدّم لها مقاييس من كلّ نوع وبراهين تفحم الخصوم وأدلة تدين بعض التّقاليد
والبدع التي لا تتفق مع الفكرة الأصليّة²⁶، وبذلك لم يكن يمكن للقرآن أن يلمس مباشرة
ضمير الإنسان بما أحدث حوله من تشغيبات كلاميّة.

كما أنّ علم الكلام لا يواجه مشكلة (الوظيفة الاجتماعيّة) للدين، لأنّ المؤمن لا يفيد
شيئاً من مدرسة تعلّمه وجود الله فحسب دون أن تلقّنه مبادئ الرّجوع إلى السّلف²⁷. ذلك
أنّ المبادئ العقديّة تمثّل الدّوافع الرّوحية التي تبني الأشخاص لأنّها تخاطب الرّوح، وهذا
الجانب هو الذي تقوم عليه العلاقات الاجتماعيّة، لأنّ هذه العلاقات ليس سوى شعورا
اجتماعيا موحّدا والذي من خلاله يمكن القيام بعمل مشترك، فالعلاقة الرّوحية بين الله
والإنسان هي التي تولّد العلاقة الاجتماعيّة، وهذه الأخيرة بدورها تربط بين الإنسان وأخيه
الإنسان في صورة المبادئ الأخلاقيّة²⁸، وعندما فقدت العقيدة تأثيرها على الفرد اختلّ نظام
أفعاله وهو يباشر وظيفته الاجتماعيّة ممّا دفع بجانب من طاقاته إلى السّكون وبجانب آخر

(24) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص159.

(25) عبد المجيد النّجار، مراجعات في الفكر الإسلامي، ص28.

(26) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص157.

(27) المصدر نفسه، ص55.

(28) مالك بن نبي، شروط التّهبّ، ص76، 80.

منها إلى العمل ضدّ ما تقتضيه مبادئ العقيدة، وبالتالي فقد قيمته الاجتماعية ممّا قد ينجّر عنه تفتّت المجتمع وإلغاء شبكة روابطه الاجتماعية، وعلم الكلام لا يركّز على إعادة هذا التأثير لمبادئ العقيدة الإسلامية.

يخلص مالك بن نبي ممّا سبق إلى أنّ حركة الإصلاح التي قادها محمد عبده لم تستطع تغيير النفس الإسلامية، ولم تستطع أن تترجم فكرة (الوظيفة الاجتماعية) للدين إلى لغة الواقع، حيث حادت عن المسار الصحيح للنهضة الفعالة باختيارها لعلم الكلام وسيلةً لحلّ المشكلة التي يعانها الضمير المسلم وما يثقله من نقائص إنسان ما بعد الموحّدين.

المطلب الثالث: نقائص التّصوف في مشروع النهضة:

رأينا فيما سبق رفض مالك بن نبي أن يؤطّر علم الكلام عملية الإصلاح في العالم الإسلامي لإعادته إلى ركب الحضارة، وأهمّ مصوغ لرفضه هذا هو أنّ علم الكلام ليس مرتبطا بمشكلة النفس التي يعدّ تغييرها هو الحلقة الأساسية لبناء النهضة، ومن العلوم الإسلامية التي تشغل بإصلاح النفس علم التّصوف الإسلامي، فيمكن أن نعتبره العلم البديل لعلم الكلام في حركة الإصلاح، ولكنّ مالك بن نبي يرفض خيار منهج التّصوف أيضا لمبررات ومسوّغات عدّة من وجهة نظره، ومن جملتها ما نذكره في الآتي:

لا يحاكم مالك بن نبي التّصوف كعلم بالرجوع إلى مصادره وأصوله وإنّما بناء على ممارسات بعض أذعياء التّصوف خلال التاريخ، ولهذا فالتّصوف حسب مالك بن نبي قاد إلى دروشة المرباطين وشعوذتهم فلا يمكن أن يقدم لنا الأساس الضّروري للإصلاح²⁹. بل إنّ ما يسمّيه مالك بن نبي بالمرباطين قد كانوا معاول هدم، فقد استعملهم الاستعمار لإيقاف سير الحضارة الإسلامية حين جند جموع المتخلّفين المتهاكين لتقف في وجوه دعاة التّجديد وجعل من بينهم من أسماهم مالك بن نبي (مدّعو التّصوف) فمثّلوا دور الرجوع إلى تقاليد الإسلام³⁰، وتسوّت خرافات المتصوّفة وخزعبلاتها بستر الإسلام الجليل تحت اسم التقاليد³¹، ممّا يتطلّب فكرا منهجيا يقوم بعملية التشذيب الضّرورية لتحرير النظام القائم من أوزار التقاليد، تمييزا وتمحيصا دقيقا لما ينشر في المجتمع بمسعى التقاليد فيفصل صحيحها عن باطلها وفق صلتها بالفكرة الإسلامية الصحيحة.

(29) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 54.

(30) المصدر نفسه، ص 111.

(31) المصدر نفسه، ص 57.

موقف مالك بن نبي من مكانة علم الكلام والتَّصوف في مشروع الإصلاح

والتَّصوف لا يستهدف سوى تطهير بعض الأنفس من الخطايا، ولا يحثنا إلى النهضة³²، فيصف مالك بن نبي المتصوِّف بأنه أكثر الباحثين حرارة عن الحقيقة في خفايا نفسه الحميمة وفي سرِّ الأفق النَّائي الَّذي تسبح فيه الحقائق المطلقة³³، لكنَّه لا يعدو أن يكون تجربة ذاتية تقدَّر في نوعيَّتها وخصوصيَّتها فلكلِّ شخصيَّة متصوِّفة ما يميَّزها في رحلة اكتشاف المجهول من نوع خاص.

ويرى مالك بن نبي أنَّ التَّصوف وما يميَّزه من غموض وإبهام هو صورة خروج الفكر الإسلامي عن مداره الأصليِّ في أفوله، حيث دفعته المغالاة إلى المهيم والغامض وعدم الدِّقة...³⁴، وذلك بعد أزمة صفين أين تخلَّى المسلمون عن نموذجهم المؤسَّس وفقدوا مرجعية الرُّوح الأصيلة فراحوا يتخبَّطون بين شبهات وشهوات النَّفس والغريزة.

كما أنَّ التَّصوف قد يخرج بالمتصوِّف إلى أحقر صور الكفر، ذلك أنَّ التَّجربة الدَّاتية للمتصوِّف قد تؤدي إلى كارثة حسب رأي مالك وذلك عندما ينتهي به المطاف إلى فكرة (وحدة الوجود)³⁵ فتضيق معالم الطَّريق أمامه ويفقد اتزانَه النَّفسي فيخلط بين حقيقتين: الحقيقة النَّسبية في عالم (الأنا) المحدود والحقيقة المطلقة المكنونة في عالم لا حدود له³⁶. ويعتبر مالك بن نبي أنَّ الحركة الصَّوفية الإصلاحية تعبَّر عن أزمة فقدان مسوِّغات الوجود في المجتمع بعد عصر الانحطاط منذ القرن 8هـ، فهي تمثِّل الدَّوافع السَّلبية الَّتِي تدفع إلى انتحار الفرد الَّذي فقد مسوِّغات حياته، ويمثِّل لذلك بالصَّوفي الَّذي يخرج عن النَّظام الطَّبيعيِّ للحياة ويتخلَّص من مسؤوليَّاتها عن طريق الأوراد والسَّبحة فهو يشبه في رأيه المنتحر العادي الَّذي يتخلَّص من مسؤوليَّاته بوسيلة الخنجر والصَّوفي ينتحر بوسائل

(32) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 54.

(33) مالك بن نبي، في مهب المعركة، ص 173.

(34) مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 24.

(35) فكرة وحدة الوجود هي فكرة فلسفية لا تفصل بين الخالق والمخلوق ولا بين المقيد والمطلق، وليس هذا هو مراد علماء التَّصوف فحتى ابن عربي الَّذي تردَّد لإصاق نسبة القول بوحدة الوجود به بحيث غدت كالحقيقة المسلَّمة عند غير المحقِّقين يقول مناقشا وموضِّحا: "إذا كان الاتحاد بصيرِّ الدَّاتين ذاتا واحدة فهو محال لأنَّه إن كان عينُ كلِّ واحد منهما موجودا في حال الاتحاد فهما ذاتان وإن عدمت العين الواحدة وبقيت الأخرى فليس للأوَّل حدٌّ، فإن كان الاتحاد بمنزلة ظهور الواحد في مراتب العدد فيظهر العدد فقد يصحُّ الاتحاد من هذا الوجه ويكون الدَّلِيل مخالفا للحسن فيكون له وجه كالكتابة عن حركة يد الكاتب حسًّا والدَّلِيل أنَّ الله خالقها وأنَّها أثر القدرة القديمة لا المحدثة فالوقوف على هذا القدر من المعرفة بطريق الكشف والشَّهود لا من طريق الفكر يُسَمَّى اتِّحادا" (ابن عربي، كتاب المسائل، ص 21) فعلماء التَّصوف لا يثبتون وحدة الوجود بالمعنى الفلسفي وإنَّما يقرُّون بوحدة الشَّهود وهي حالة فناء وجدانية ذوقية.

(36) مالك بن نبي، في مهب المعركة، ص 173.

الروح³⁷ ، ويضرب لنا مالك بن نبي مثالا ليدلّل على صحّة الرأْي الذي ذهب إليه بتجربة الإمام أبي حامد الغزالي (ت 505هـ) الذي حاول أن يعيد للمجتمع الإسلاميّ مسوِّغات حياته الضّروية عن طريق تأليف كتابه (إحياء علوم الدّين) وهو كتاب موضوع وفق منهج التّصوف فلم يوفّق حسب رأيه في محاولته لاستعادة المسوِّغات المفقودة لدى المجتمع الإسلاميّ.

يخلص مالك بن نبي ممّا سبق إلى تحييد التّصوف من مهمّة إصلاح الفرد وبعث موات ضميره للنّهوض بالفعل الحضاري، وهو في نقده الذي عرضه إنّما يقدّم صورة للتّصوف وفق رؤيته إليه هو بناء على بعض ممارسات مدّعي التّصوف لا على التّصوف كعلم قائم بذاته مستمّر من مصادر التّشريع الإسلامي غايته إحدى مهمات النّبوة وهي التّركية، وقد نشأ مالك بن نبي في بيئة صوفية ولكنّه في نظرته إلى التّصوف يركّز على ما يسمّيه بالمرباطيّة التي يعتبرها حالة العفن التي وصلت إليها المؤسّسات الصّوفيّة ممثّلة في الزوايا والرباطات وزعمائها، حيث لعبت هذه الأخيرة دورا سلبيا في القرن العشرين بمهادنة بعض المنتسبين إليها للاستعمار الفرنسيّ في الجزائر، وهذه النّظرة الجزئية في الحقيقة تغطّ حقّ التّصوف ودوره في العالم الإسلاميّ عموما وفي الجزائر خصوصا، حيث يغضّ الطّرف عن إيجابياته حين يقفز على بعض المراحل للمقاومة الشّعبية الممتدّة من سنة 1832م إلى 1902م بقيادة التّصوف ورجاله كالأمير عبد القادر ولالة فاطمة نسومر والشيخ المقراني والشيخ الحّدّاد، هذه المرحلة التي يتساءل أيّ باحث عن غياب التّفصيل فيها ضمن ما كتبه مالك بن نبي.

وبناء على ما سبق ينتهي مالك بن نبي إلى تحييد علم الكلام والتّصوف عن مهمّة النّهوض الحضاري بالأمة الإسلام ويقدم بديلا لهما أطلق عليه اسم "علم تجديد الصّلة بالله".

(37) مالك بن نبي، تأملات، ص 44.

المبحث الثّاني: ملامح علم تجديد الصّلة بالله عند مالك بن نبي:

يقوم النّقد البنّاء الهادف على جانبي الهدم والبناء وكذلك كان نقد مالك بن نبي لحركات الإصلاح، حيث لم يتوقّف عند بيان نقائص الوسائل التي قدّمتها لحلّ مشكلة تفعيل الفكرة الدينيّة في الضّمير، بل قدّم العلاج الذي يراه ناجعا لهذه المشكلة.

المطلب الأوّل: محدّدات علم تجديد الصّلة بالله:

نقد مالك بن نبي الحركة الإصلاحية التّقليدية في اختيارها لعلم الكلام وبين نقائصها المنهجية، ولكنّها وإن لم تنجح في تغيير النّفس فقد نجحت في زعزعة الضّمير الإسلامي وإشعاره بمأساته المزمنة، غير أنّها حصرت علاج المشكلة في مجالها العقلي. ولهذا يقدم مالك بن نبي تصوّره للعلاج الناجع والفعال لمشكلة ضمير الفرد المسلم والذي مازال قلبه مرتبطا بعقيدته وكلّ ما ينقصه هو توفير الدّافع الدّاخلي الذي يحرك قلبه المتعطّش للمعاني الروحية والتي ستقوم بمهمّة تغذيته لتستعيد العقيدة فعّاليّتها فيه، وطريق ذلك هو تجديد صلته بالله تعالى.

فهذا هو الوصف العام للحلّ الضّروري وفق مالك بن نبي لأنّ التّجديد الذي يتّصل بالفكر وحده هو برأيه إصلاح ظاهري، أمّا التّجدّد فيعني به تجدّد النّفس الذي هو جوهر التّهضة، وذلك ما يتحقّق بما أسماه مالك بن نبي (علم تجديد الصّلة بالله) والذي جعل قوامه عنصرين أساسيين هما:

• استعمال الآية القرآنية خالصة مجرّدة.

• التّركيز على المنطق العملي.

أوّلا: تجلّي الحقيقة القرآنية على الضّمير:

أداة الإصلاح المركزيّة في رأي مالك بن نبي هي الفكرة القرآنية التي تلمس مباشرة الضّمير الإنساني ممّا يتعدّى إلى مجال حياته وجوانب فكره ومناحي سلوكه فتؤثّر في الأناسي والأشياء، وينتج عن ذلك تجدّد القيمة القرآنية في ذاتها، لتصبح قيمة ناشطة ووسيلة فيّة لتغيير الإنسان، بحيث تتحوّل الآية القرآنية إلى أمر حيّ يملّي على الفرد سلوكا جديدا، ويجذبه جذبا إلى حياة العمل والنّشاط³⁸، فلا نحتاج تفسير القرآن بقدر ما نحتاج إلى أن نوحيه إلى الضّمائر التي يزلزل كيائها، فلا يكون القرآن على الشّفاة وثيقة باردة أو قانونا

(38) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 157.

محزرا، بل يتفجر كلاما حيا، وضوءا أخاذا يتنزل من السماء فيضيء ويهدي، ومنبعا للطاقة يكهرب إرادة الجموع³⁹.

وينادي مالك بن نبي بالرجوع إلى الإسلام الخالص أي تنقية النصوص القرآنية من غواشيتها الكلامية والفقهية والفلسفية، فالفكرة القرآنية قوامها المبادئ والأخلاق والروح وهي الأمور التي تبقى للمجتمع التوتّر الضروري كي يواصل نشاطه المشترك في التاريخ، وذلك بأن توفر الظروف التي تؤهل الطاقة الحيوية للمجتمع كي تنسجم مع وظيفتها التاريخية.

وهذه الظروف يقرها القرآن في نص آياته الخالص بإخضاع غرائز المسلم إلى عملية شرطية ترشدّها وتنظّمها في علاقة وظيفية مع ما تقتضيه مضامين الوحي القرآني⁴⁰، وبذلك تنضبط الحيوية الحيوانية التي تمثلها الغرائز بقواعد نظام مبادئ القرآن، أي تخضع دوافعه الغريزية المتمثلة في الدافع الغذائي ودافع التملك والدافع التناسلي وهو الإمكانيات الضرورية للحياة الاجتماعية⁴¹، وبالتالي يتحرر الفرد جزئيا من قانون الطبيعة المفطور في جسده ويخضع وجوده إلى المقتضيات الروحية التي طبعها مبادئ القرآن فيه.

فالقرآن في مضمونه يخاطب الروح ويقدم لها الدوافع الروحية التي تبني الشخص والأفعال وردود الأفعال المتبادلة بين القرآن ونفس الفرد أو ما يسميه مالك بن نبي نظام الأفعال المنعكسة التي تتولد بين الفرد والمبادئ القرآنية وتبعث فيه الحركة والنشاط فيبلغ أقصى فاعليته الاجتماعية.

هذا ما يستلزم تمكين سلطان القرآن من قلب ونفس الفرد وهو ما يرى مالك بن نبي تحقّقه بتقديم القرآن كما أنزل مجزدا عما علق به من تعاليق تاريخية وتلقّيه وكأنّه يوحى للفرد، ولكن بلا شك أنّ ذلك يتطلب توفير الظروف النفسية عينها التي تلقّت فيها الأنفس تنزل القرآن وهي المهمة التي تقع على كاهل المنتصدين للدعوة بتجديد الخطاب الديني فيتحوّل الوعظ إلى عمل اجتماعي لا مجرد واقعة لفظية وإنّما يكون فعّالا ويهتم بالفعالية.

(39) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 159.

(40) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 68، 75.

(41) مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 50.

ثانيا: التّركيب النّاشط للفكر والعمل:

وذلك بأن تخلي الفكرة المجرّدة مكانها لتشغله قيمة ماديّة محقّقة⁴²، فبدل أن نحدّث المسلم عن الله العقليّ الذي يصوّره علم الكلام نحدّثه عن إله فعّال لما يريد متجلّ على عباده برحمته وقهره حتّى يستشعر المسلمون حضور هذا الإله فيما بينهم.

فيرى مالك بن نبي أنّ المجتمع الإسلاميّ لا يعيش طبقا لمبادئ القرآن وإنّما يتكلم فقط تبعا لمبادئ القرآن وذلك لغياب المنطق العمليّ في سلوكه الإسلاميّ وعدم الفاعليّة في أعماله فيتّجه إلى العبث والمحاولات الهازلة فهو لا يفكر ليعمل ولكن ليقول كلاما مجرداً⁴³. ولذلك يدعو إلى وجوب أن يحتلّ مبدأ الفاعليّة أوّل درجة في سلّم القيم، فيجمع في ضمير المسلم ما بين الطّبيعة وما وراء الطّبيعة ليحمل مسؤوليات وجوده مادّيا وروحيا، ويشيّد عالمه طبقا لقانون أسبابه ووسائله بما يواءم مقتضيات غاياته.

فالمبادئ التي نلقّنها للفرد المسلم يجب أن تراعي في صياغتها اشتمالها على مقوّمات تحريكه ودفعه ليحوّل مكتسباته المعرفيّة إلى نشاط عمليّ، هذا النّشاط الذي ينتقل من مستوى الفرد إلى المجتمع بتوجيه طاقاته الفكرية والروحيّة والماديّة لإنجاز وتحقيق نتيجة واقعيّة هي صناعة تاريخه في ركب الحضارة.

المطلب الثّاني: النموذج التّطبيقي لعلم تجديد الصّلّة بالله في مشاريع حركة الإصلاح:

حركة الإصلاح التي قادها محمد عبده لم تستطع تغيير النّفس الإسلاميّة لأنّها لم تحسن تقدير لبّ المشكلة برأي مالك بن نبي، فطلّبت مشكلة بقايا إنسان ما بعد الموحّدين قابضة برمتها في الضّمير المسلم. لكن جاوزت حركة الإصلاح إلى مرحلة أخرى فسلكت منعطفاً جديداً، فتغيّرت فكرة الإصلاح وتحوّلت في أعماقها إلى حركة جديدة حين سعت إلى وضع أساس أخلاقيّ لحياة المسلمين.

فيشيد مالك بن نبي بالشّيخ عبد الحميد بن باديس وحركته الإصلاحية في الجزائر، والتي شدّت عن وتيرة حركة الإصلاح التقليديّة التي اهتمّت بإصلاح العلم، فابن باديس هو الرّجل الذي قدّر لإشعاعه أن يبلغ أعماق الضّمير الشّعبي⁴⁴.

(42) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص159.

(43) مالك بن نبي، شروط النّهضة، ص102، 103.

(44) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص156.

فالمطلّع على آثار الشيخ عبد الحميد بن باديس يقف كثيرا على حديثه عن إصلاح النفس⁴⁵ التي يعتبرها المكلف والمخاطب من الإنسان وما البدن إلا آلة لها ومظهر تصرفاتها، وصلاح الإنسان وفساده يقاسان بصلاح نفسه وفسادها وكذلك رقيّه وانحطاطه هو باعتبار رقيّ نفسه وانحطاطها. وصلاح النفس برأي ابن باديس هو كونها على حالة اعتدال في ذاتها وصفاتها بحيث تصدر عنها أو بها أعمالها المرادة منها على وجه الكمال، ومنه ففسادها هو كونها على حالة اختلال في ذاتها أو في صفاتها بحيث تصدر عنها أو بها تلك الأعمال على وجه النقصان. ذلك أنّ صلاح النفس أمر خفي فيستدلّ عليه أو على فسادها بما نشاهده من أعمال الإنسان إذا ما كانت جارية على ما تقتضيه أوامر الشرع ونواهيه.

كما ركّز عبد الحميد بن باديس على قضية التقليد في اعتناق الإسلام من الآباء إلى الأبناء، فأطلق على الإسلام المبني على الجمود والتقليد بلا فكر أو نظر وصف الإسلام الوراثي، إذ المسلم إسلاما وراثيا يأخذ الإسلام على ما وجدته عن أهله ولم يكابد فيه معاناة التأمل التي تكسبه قوة، فلم يكن للعقيدة علاقة فعل وانفعال بالنفس حتى تؤثر في فعل المسلم وتثمر إنجاز العمل الصالح، فلم يبق للمسلمين إلا العقيدة المجردة التي ليس من شأنها أن تنهض همّة المسلم للنهضة والتحضّر، والأمم لا تنهض إلا بالتفكير في آيات الله السمعية وآياته الكونية فتستثمر ما في السموات والأرض وتشيد صروح المدنية والعمران.

كما يكبر مالك بن نبي بإقبال حين أحسن صياغة مشكلة الإصلاح في الإطار الخاص بالعالم الإسلامي، وذلك في تنبيهه على أنّ المطلوب ليس هو العلم بالله وإنما معنى أوسع وأدق عبّر عنه بـ(الاتصال بالله)، أي تجلّي ذات الله العلوية، فليس المطلوب مفهوما كلاميا مجردا وإنما انكشاف الحقيقة الخالدة⁴⁶ للباحث عنها.

⁽⁴⁵⁾ عمّار الطّالبي، آثار ابن باديس، ج 1، ص 231، 232.

⁽⁴⁶⁾ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 155.

كذلك الشّأن عنده لجماعة الإخوان المسلمين في أوّل تكوينها والتي برأيه تلمّس فيها الضّمير المسلم طريقه من جديد فيعتبرها بمثابة الاستجابة الحقّة لما دعت إليه آراء محمد إقبال، فهي حركة تمتاز في جوهرها بالمؤاخاة العمليّة التي كان يحملها عنوانها فحاول التّأليف بين أعضاء المجتمع تأليفا يحمل معنى المشاركة في الأفكار والأموال، ولم يكن زعيمها فيلسوفا أو عالم كلام، وإنّما اكتفى بأنّ بعث في النّاس إسلاما خلع عنه سدول التّاريخ، وما كان له من نظريّة يركن إليها سوى القرآن نفسه، ولكنّه القرآن الذي يحرك الحياة⁴⁷. ولم يفصل كثيرا في شأن هذه الجماعة لما عزاه إلى النّقص في الوثائق والأسانيد الكافية لدراستها، وإن كان منهجها وأسلوبها يمثل عنده روح التّطبيق الحقيقي لعلم تجديد الصّلة بالله.

(47) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص156/157.

خاتمة:

- توصّلت في ختام هذا البحث حول نظرة التجديد الإصلاحي في مشروع النهضة الذي قدّمه مالك بن نبي وموقفه من علم الكلام والتّصوف إلى النتائج الآتية:
- حدّد مالك بن نبي مشكلة التّخلف في العالم الإسلامي بأنّها مشكلة الفرد والإنسان المسلم ببعديه النّفسي والاجتماعي، حيث أنّ مبادئ الإسلام بما يميّزها من قدرة على الدّفع بمعتقداتها إلى كتابة تاريخهم في سجّل الحضارة - كما أثبت التاريخ ذلك - فقدت سلطتها على ضمير المسلم وتحوّلت إلى معتقدات صوريّة متجرّدة عن الفعل فيه.
 - علاج المشكلة النّفسيّة والاجتماعيّة للفرد المسلم وفق مالك بن نبي يكمن في إعادة بعث الفاعليّة في مبادئ القرآن كي تؤثر في هذا الضّمير بما ينعكس على فكره وإرادته وسلوكه فتبعث فيه النّشاط والحركة الهادفة القاصدة كي يبني حضارته الإنسانيّة.
 - لعب علم الكلام وعلم التّصوف دورا هاما في تشكيل عقل المسلم وبناء روحه اللّذان تمخّضا عن أشكال متعدّدة من مظاهر الحضارة الإسلاميّة في فتراتها التّاريخيّة، ولكن مالك بن نبي يقرّر أنّ التّغيير المراد تحقيقه في نفس المسلم للهوض الحضاري في القرن العشرين ليس من مهمّة علم الكلام الذي يحوّر المشكلة النّفسيّة ويحوّلها إلى مشكلة عقليّة، وليس هو كذلك من مهمّة منهاج التّصوف الذي قاد إلى الدّروشة والتّحلل من المسؤوليّة الاجتماعيّة بالانكفاء على الأوراد والعبادة المقصورة في اتّجاهها العمودي، وهذا نتيجة نظرة جزئيّة إلى محطّات مظلمة من تاريخ العلمين.
 - التّغيير المراد في النّفس لبعث حركتها الحضاريّة في التاريخ هو من مهمّة علم جديد أسماه مالك بن نبي علم تجديد الصّلة بالله، يقوم في مادّته الأساسيّة على الأفكار القرآنيّة المجرّدة عمّا أحيط بها تاريخيا من غواشٍ كلاميّة أو فقهيّة أو فلسفيّة، مع التّركيز في عرض هذه المبادئ على التّركيب النّاشط للفكر والعمل أي بناء الفاعليّة ببعث المنطق العمليّ في القول والفعل معا.
 - إنّ مالك بن نبي في نظريته هذه يدعو إلى تجديد الخطاب الدّيني بصورة تبدو في ظاهرها وكأنّها تتقاطع مع ما تدعو إليه النّظرة الحداثيّة في دراسة الفكر الإسلامي، حيث تدعو إلى نبذ التّراث وتفسير النّصوص القرآنيّة تفسيراً جديداً وفق روح العصر وتعدّد القراءات المعاصرة. ولكنّ مالك بن نبي في الحقيقة يدعو إلى التّركيز على المبادئ الأساسيّة في القرآن والإسلام والتي تحقّق قيمة الفعاليّة، بدل صرف الجهد والطّاقة في

مناقشة مسائل لحقت عرضاً بالنصوص القرآنيّة نتيجة قراءة تاريخيّة معيّنة، وإن كان جهد العقل في هذه المسائل جهداً لا يستهان به معرفيّاً ولكن واقع الأُمّة الإسلاميّة وما تعانيه من تخلف وعجز في مناحٍ كثيرة يستلزم الإعراض عن هذه النّقاشات الّتي قد تبدو ترفاً عقليّاً في الوقت الرّاهن فيستعاض عنها بالالتفات إلى النصوص القرآنيّة الّتي تحدّد مهمّات الإنسان في الحياة كالعبادة والخلافة والشّهادة والّتي يثمر رسوخ الإيمان بها وتطبّعها في قلبه توحّد عقله وقلبه وسلوكه فتدفعه إلى الخروج من حالة العجز والسّلبية إلى حالة من النّشاط الإيجابي والحركة المتوازنة القاصدة في الكون وفق المنهج الرّباني الّذي وضعه خالقه له.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1/ مالك بن نبي، تأملات، ترجمة عمر كامل مسقاوي، (سوريا: دار الفكر، ط1، 2002م).
- 2/ مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، (سوريا: دار الفكر، ط15، 2017م).
- 3/ مالك بن نبي، في مهبط المعركة، (سوريا: دار الفكر، ط12، 2016م).
- 4/ مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ترجمة عمر كامل مسقاوي، (سوريا: دار الفكر، ط1، 2000م).
- 5/ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو، (سوريا: دار الفكر، ط13، 2016م).
- 6/ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، (سوريا: دار الفكر، ط10، 2015م).
- 7/ عمّار الطالبي، آثار ابن باديس، (الجزائر: دار الوعي، ط6، 2016م)، ج1.
- 8/ أبو نصر الفارابي، إحصاء العلوم، (لبنان: دار ومكتبة الهلال، ط1، 1996م).
- 9/ محمد الغزالي، عقيدة المسلم، (مصر: دار نهضة مصر، ط4، 2005م).
- 10/ ابن عربي، كتاب المسائل، (طهران: مؤسّسة مطالعات وتحقيقات فرهنگی، دط، 1370هـ).
- 11/ عبد المجيد النّجار، مراجعات في الفكر الإسلامي، (تونس: دار الغرب الإسلامي، ط1، 2008م).
- 12/ عضد الدّين الإيجي، المواقف في علم الكلام، (لبنان: عالم الكتب، دط، دت).
- 13/ أبو حامد الغالي، المنقذ من الضلال، (لبنان: دار الأندلس، ط7، دت).